

الوطنيون العرب ونشاطهم
السياسي والصحفي في ألمانيا
حتى نهاية الحرب العالمية الأولى

دكتور فرنز أند - دكتور بيتر هاينه

بجامعة هامبورج - بجامعة مونستر

فى عام ألف وتسعمائة وأربعة وثلاثين ألف المستشرق الفرنسى هنرى بيريس (Henri Pères) فهرسا تناول فيه الرحالة العرب الذين قاموا بزيارات الى أوربا فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وقد طبع هذا الفهرس فى القاهرة بعد الانتهاء من تأليفه ببضع سنوات . واذا ألقينا نظرة على هذا الفهرس فسوف نجد أن عدد العرب الذين كتبوا عن ألمانيا كان ضئيلا ، وخاصة فى القرن التاسع عشر . ولهذه الظاهرة أسباب عديدة ، منها أن ألمانيا لم يكن لها كيان سياسى متكامل حتى عام ١٨٧١ ، بل وحتى مملكة بروسيا وهى التى تمثل جزءا كبيرا من الدولة الألمانية بعد اتحادها لم يكن لها آنذاك علاقات تذكر بدول حوض البحر الأبيض المتوسط سواء كان ذلك من الناحية السياسية أو الناحية الاقتصادية وكان ذلك هو السبب فى عدم تشجيع الرحالة العرب الى التوجه الى ألمانيا اذا ما قورن ذلك برحلاتهم الى أسبانيا أو فرنسا أو إنجلترا . ويلاحظ أن اهتمام الكتاب والسياسيين والصحفيين العرب بشئون ألمانيا قد بدأ يزداد بعد وحدة ألمانيا فى عام ١٨٧١ وخاصة فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر . ونذكر على سبيل المثال الرحالة التونسى محمد بيرم التونسى (الخامس)

الذى تعرضى فى كتابه « صفوة الاعتبار » للكتابة عن برلين ، وكذلك العالم المصرى محمد امين فكرى الذى وصف أيضا مدينة برلين فى كتابه « ارشاد الألباء الى محاسن أوروبا » وما زال هذا الكاتبان معروفين حتى الآن .

وعلى العكس من هذين الكاتبين فقد أهمل المؤرخون ذكر شخص توفيق المصرى الذى كان يقوم بتدريس اللغة العربية فى معهد الاستشراف بجامعة برلين فى الفترة من ١٨٨٧ حتى ١٨٨٩ . وله كتاب اسمه « رحلة حسن افندى بوفيق او الرحلة البرلينيه » وكان فى ثلاثه عشر جزءا صغيرا نشرت تباعا فى مصر فى الفترة من عام ١٣٠٥ حتى عام ١٣٠٧ من الهجرة (يوافق ١٨٨٧ حتى ١٨٨٩ ميلادية) ، الا أن معظم أجزاء هذا الكتاب قد فقدت على ما يبدو ، ولم نعث منها الا على جزء واحد فى أرشيف عائلة بسمارك (Bismarck) بالقرب من مدينة هامبورج . وقد تناول المؤلف فى هذا الجزء شيئا عن حياة بسمارك وعن تاريخ امارته . وللمؤلف أيضا كتاب آخر بعنوان « رسائل البشرى فى السباحة بألمانيا وسويسرا » وقد طبع فى مطابع بولاق سنة ١٨٩١ وقد بحثنا عن هذا الكتاب ولكننا لم نعث عليه حتى الآن .

أما عن رواد حركة استقلال مصر فقد اتخذوا باريس وسويسرا مقرا لهم ومنطلقا لكفاحهم ، وكانت لهم اتصالات بألمانيا فى نهاية القرن التاسع عشر ، وزار الزعيم مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطنى ألمانيا لهذا الغرض وفى عام ١٨٩٥ أشار مصطفى كامل وهو فى باريس على الخديوى أن يمدده ببعض النقود للتأثير بها على بعض الصحف الألمانية لتقوم ، بالدعاية لمصر لمساعدتها فى نيل استقلالها من الاحتلال البريطانى ، ولكن الخديوى لم يستجب لهذا المطلب .

وقد بدا للوطنيين المصريين أنهم يستطيعون استغلال سياسة التقارب السياسى بين ألمانيا والدولة العثمانية للتخلص من الانجليز ، لأن تركيا هى الأخرى كانت تود التخلص من الانجليز على أمل أن تعود لها سيادتها على مصر .

أما فيما يتعلق بالسياسة الألمانية آنذاك فتتضح من تلك الواقعة : عندما قام القيصر غليوم الثانى عام ١٨٩٨ بزيارته للأستانه ودمشق والقدس أظهر تعاطفه مع المسلمين فى كل العالم ، وكان فى أثناء خطابه ومناقشاته يعمد الى ابراز تلويزات واشارات رمزية أثارت لدى بعض العرب والمسلمين أوهاما توحى بأن ألمانيا تعمل من أجل مصالح المسلمين وشعوبها التى كانت ترزخ تحت وطأة الاستعمار الانجليزى والفرنسى

والروسي . نقول هنا أوهاما لأن الواقع الذي لا يحتاج الى اى ايضاح أن الدولة الألمانية في ذلك الوقت كانت دولة عظمت وكانت هي الأخرى لها مستعمراتها وأهدافها الاستعمارية ، ولكن الذي ساعد على قبول السياسة الألمانية آنذاك أن الدول التي وقعت تحت الاحتلال الألماني كانت بعيدة عن الدول الإسلامية وكان عدو المسلمين الذين يقطنون تلك البلاد ضئيلا . ولقد تحفظت دولة ألمانيا فترة طويلة تجاه تقديمها المساعدة للوطنيين المصريين في كفاحهم لتحرير مصر ، حرصا منها على علاقاتها الطيبة مع بريطانيا التي كانت معرضة للنقد الشديد من قبل فرنسا بسبب احتلالها لمصر .

ومن جانب آخر فكانت دولة ألمانيا حريصة على مصالح خليفاتها تركيا في حقها الشرعي في السيادة على مصر ، وكانت ترى أن أى تقارب مع الحركة الداعية الى استقلال مصر كان سيؤدي الى اغضب تركيا . الا أن هذا التحفظ من جانب ألمانيا أخذ بمرور الزمن يتغير رويدا رويدا وخاصة عندما تم التفاهم بين انجلترا وفرنسا عام ١٨٩٩ على عدم المساس بمصالح فرنسا في المغرب العربي ، وبالذات عام ١٩٠٤ عندما عقدت بينهما الاتفاقية المسماة « بالجلف القلبي » (Entente Cordiale) والتي تقضى باعتراف فرنسا باحتلال انجلترا لمصر . فمن قبل ، كانت ألمانيا تساعد انجلترا ضد فرنسا في احتلالها لمصر ، أما وقد اتفقت انجلترا مع فرنسا على الاحتلال فكان من الطبيعي أن أصبحت انجلترا في غنى عن مساعدة ألمانيا لها ، وقد أدى ذلك الى أن تقلب ألمانيا لانجلترا ظهر المجن وتمد يد المساعدة للوطنيين المصريين وان كان هذا التقارب قد ظل يأخذ سمة الجذر حتى لا تثير ألمانيا بذلك غضب تركيا ومطامعها في مصر .

وقد أدى نشوب الحرب العالمية الأولى أن تقوم السياسة الألمانية بدور ايجابي في مساندة الحركات التحررية في كل من مصر والمغرب العربي وفي الهند ، وكانت ألمانيا تهدف من وراء ذلك الى تحقيق ما يلي :

أن الحكومة الألمانية والقادة العسكريين بها اذا استطاعوا تحريض الحركات التحررية في كل من مصر والمغرب العربي والهند على الثورة فسوف تضطر كل من انجلترا وفرنسا على سحب أجزاء كبيرة من قواتها العسكرية وأساطيلها المربطة في أوروبا ، وارسالها الى مناطق الاضطرابات لاقحام الثورات بها فيسهل ، بذلك التحالف « ألمانيا والنمسا وتركيا » تحقيق النصر على انجلترا وفرنسا في أوروبا .

وفي الخريف عام ١٩١٤ كتب السياسي والمستشرق الألماني البارون ماكس فون أوبنهايم (Max von Oppenheim) لدى كان يعمل في وراثه الخارجية قسم الشؤون الشرقية ، كتب تقريراً بعنوان « اثارة المنشاطة الاسلامية ضد أعدائنا » ومما جعل فكرة اثارة الشعوب هذه اقرب الى القبول ان تركيا كانت تطالب بان يكون سلطانها حليعه على العالم الاسلامي كله . وقد تطلب هذا الهدف الاستراتيجي جمع معلومات دقيقة عن هذه الدول الاسلامية وبناء عليها توضع خطة ذكية للدعاية التي تؤدي الى التحريض على الثورة ، ورأت الحكومة الالمانية لتحقيق هذا الهدف أن تجلب الى ألمانيا بعض الوطنيين العرب ، وتجلب بالاضافة الى ذلك مكافحين من أجل الحرية من ايران والهند وغيرها .

وعلى أي فان العربي الذي استطاع أن يلفت أنظار الرأي العام اليه عند زيارته لألمانيا لم يكن من المغرب ، ولم يكن من مصر بل كان من لبنان ، ذلك العربي هو الأمير شكيب أرسلان الذي ولد عام ١٨٦٩ وتوفي عام ١٩٤٦ :

سافر الأمير شكيب أرسلان في صيف عام ١٩١٧ الى ألمانيا في زيارة رسمية ، ثم سافر اليها مرة ثانية عام ١٩١٨ بصفته نائبا في مجلس الأمة العثماني مبعوثا من الحكومة التركية . وكان عليه في الرحلة الاولى أن يدرس الحالة السياسية والاجتماعية في ألمانيا وذلك بتكليف من وزير الحرب التركي أنور باشا ، أما الرحلة الثانية فكانت تهدف الى تقريب وجهات النظر بين الحكومتين التركية والالمانية بشأن سياسة تركيا في القوقاز . ومما يلفت النظر أن وزير الحرب التركي أنور باشا قد اختار المهمة الوساطة بين الحكومتين التركية والالمانية رجلا عربي الأصل ، مفضلا اياه على أن يكلف أحد الأتراك للقيام بهذه المهمة .

ولقد استقبل شكيب أرسلان في ألمانيا استقبالا حافلا وعومل معاملة خاصة ، وسبب ذلك أن الحكومة الالمانية قد رأت على ما يبدو في شكيب أرسلان عنصرا عربيا هاما لمساندة وتقوية السياسة التركية تجاه الدول والشعوب العربية . ولقد كانت ألمانيا تود توطيد علاقتها بخليفتها تركيا ورأت ما يتمتع به الأمير من صلة وثيقة بالحكومة التركية فكان هذا الاستقبال والحفاوة البالغة ، هذا بالاضافة الى الصداقة المتينة التي كانت تربط شكيب بأنور باشا ، فعومل لذلك أحسن المعاملة حتى ينقل عن ألمانيا صورة حسنة لأنور باشا عن لقائه به مرة ثانية .

أما البارون أوبنهايم الذي كان صديقا للأمير شكيب أرسلان مدة عشرين عاما فقد استغل هو الآخر نفوذه بالتمهيد لاستقبال شكيب أرسلان استقبالا جسيما أينما حل في ألمانيا ، سواء كان ذلك في برلين أو في المدن الأخرى أو في مناطق الاحتلال الألماني كبلجيكا وفرنسا . وقد غطت الصحافة الألمانية أبناء تنقلاته في عام ١٩١٧ كما نشرت خطبه ومقالاته . ويحدثنا شكيب أرسلان في مذكراته التي طبعت أخرا في بيروت سنة ١٩٦٩ تحت عنوان « سيرة ذاتية » يحدثنا فيها عن انطباعاته وهو في ألمانيا . ولكن شكيب للأسف لم يشر في مذكراته إلا الى عدد ضئيل جدا من السياسيين الألمان والموظفين والعلماء الذين اجتمع بهم خلال رحلاته ومما تجدر ملاحظته أن بين الأعداد الضئيلة التي كتب عنها شكيب أرسلان في مذكراته يوجد اسم رئيس بلدية كولونيا آنذاك ، ذلك الرجل الذي عرف بعد ثلاثين عاما من لقائه به مستشارا لجمهورية ألمانيا الاتحادية ، ألا وهو الدكتور كونراد أديناور (Konrad Adenauer) .

وكما سبق أن ذكرنا فقد جاء شكيب الى ألمانيا بصفته نائبا في مجلس الأمة التركي ، ورغم ذلك فمكننا أن نعد شكيب أرسلان من الوطنيين العرب الذين كانوا يعملون من أجل القضية العربية ، والسبب في ذلك ما يلي :

أن شكيب قد أصبح فيما بعد من المكافحين البارزين من أجل الوحدة والاستقلال العربي ، وكفاحه من أجل المغرب العربي معروف للجميع ومما تجدر الإشارة إليه أن شكيب في محادثاته الخاصة والعامة وفي مقالاته التي نشرتها له الصحف الألمانية لم يخف موقفه على أنه وطني عربي . صحيح أن شكيب قد دعا آنذاك العرب الذين كانوا يعيشون داخل نفوذ الدولة العثمانية وخارجه دعاهم جميعا للدفاع عن هذه الدولة العثمانية ، وصحيح أيضا أنه وجه نقدا شديدا الى أنصار القومية العربية في الحجاز إلا أنه ليس من العدل أن يوصف موقف شكيب هذا على أنه خيانة للقضية العربية ، فلشكيب أرسلان الفضل في لفت أنظار الرأي العام في ألمانيا لأول مرة على مسألة القومية العربية من جانب ، وعلى الأخطار التي تكمن وراء قيام الشوفينية التركية (أى التغالي في العنصرية التركية) من جانب آخر ، وقد أتاحت له إقامته في ألمانيا أن يبرز هذه المسألة بوضوح ، ولم

تكن الفرصة مهيأة له من قبل للأعراب عن وجهة النظر هذه وهو في
اسطنبول . ونستطيع ان نلمس هذا الموقف واضحاً من المقال الذي وجد
قبولاً كبيراً في ألمانيا والذي نشر عام ١٩١٧ في مجلة « الشرق الجديد »
(Der Neus Orient) التي كانت تهتم بوجه خاص بتطورات
الموقف في كل من اسيا وشمال افريقيا ، تلك المجلة التي كان يسرف
عليها مديتب خاص تابع لوزارة الخارجية ، الألمانية ولأن هذا المقال بعنوان
« ماذا ننتظره سوريا من الحرب » . وقد اشار سديب في هذا المقال الى ان
غالبية الشعب السوري (واعني به منطقة الشام التي كانت تضم سوريا
ولبنان وفلسطين والاردن) يمتنون أن تظل هذه المنطقة تحت النفوذ
العثماني ، ولكن ليس تحت الشروط الحالية . بل تحت شروط تكفل
احياء العروبة واللغة العربية . ولقد تبني وجهه النظر هذه أيضا المتحمسون
جدا لبقاء التحالف العربي مع تركيا ، والفرق بينهم وبين الداعين الى الانفصال
نهائيا عن تركيا أن الآخرين كانوا يعملون على بذور بذور الكراهية والحقد
ضد الأتراك . وكانت الكلمات التي يلقيها اتباع الشوقانية النورانية
التركية (أى أتباع العقيدة التركية النورانية) في اسطنبول والتي كانت
تشيد بأمجاد جنكيز خان وتيمور لانك كانت تجسم في الدول العربية
صورة الاستعمار البغيض ، وقد مد ذلك لانجلترا وفرنسا الطريق لكسب
الكثير من الأصدقاء في الدول العربية .

وفي المجلة السالفة الذكر أوضح شكيب أرسلان في فبراير ١٩١٨
أنه رغم تحمسه لبقاء التحالف التركي العربي الا انه مع ذلك ليس عميلا
للأتراك ولا للألمان وليس تابعا لأي جهة ، ويبدو أيضا أن شكيب أرسلان
قد أطلع السياسة الألمان على الاجراءات الطاغية التي يمارسها جمال باشا
الحاكم التركي في سوريا . وكان ينبغي من وراء ذلك أن يستعمل الألمان
نفوذهم لدى الأتراك لتخفيف وطأة هذه الاجراءات .

أما الوطنيون المصريون والمغاربة الذين أقاموا في ألمانيا في ذلك
الوقت ، طالبت مدة اقامتهم فيها أم قصرت ، فكانوا يساندون وجهة النظر
الألمانية التركية بالتحريض على الثورة في المحميات والمستعمرات الانجليزية
والفرنسية .

ولقد كانت ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى هدفا لزيارة الوطنيون

العرب .

وعلى سبيل المثال فقد عاش الدكتور لبيب محرم ، رفيق مصطفى
كامل في الكفاح ، في برلين لاحقا سياسيا وتوفي بها في سبتمبر
سنة ١٩١٣ .

ولكن لا يفوتنا ان نذكر ان معظم الوطنيين المصريين الذين طلبوا اللجوء السياسي قد اتخذوا سويسرا مقاما لهم ومن هناك شنوا ، أثناء الحرب ، حملاتهم في الصحافة من اجل استقلال مصر . وقد فضلوا الإقامة في سويسرا لعاملين هامين : الاول موقف سويسرا المحايد . والعامل الثاني هو وجود صحافة سويسرية حرة باللغتين الألمانية والفرنسية ، وكانت هذه الصحافة توزع على نطاق واسع في كل أنحاء أوروبا . بل ووجد بعض هؤلاء الوطنيين مساعدة خاصة من فؤاد سليم الحجازي المصري الذي كان صديقا لمصطفى كامل قبل وفاته والذي كان يعمل سفيرا لتركيا في برن ، وبهذه المساعدات تمكّن المكافح التونسي محمد باش حانية من سنة ١٩١٦ حتى نهاية الحرب سنة ١٩١٨ وهو في جنيف من اصدار مجلة المغرب (Revue du Maghreb) باللغة الفرنسية . ومن يود أن يتتبع النشاط الصحفي والسياسي للوطنيين العرب وخاصة المصريين منهم فسوف يلمس ذلك بوضوح من سيل الرسائل المتبادل بين الوطنيين العرب وزملائهم في كل من سويسرا وألمانيا وكذلك في الزيارات المتبادلة والتنقلات المستمرة بين البلدين . ولقد ظهر على سبيل المثال في مجلة الشرق الجديد Der Veue orient سאלقة الذكر والخاضعة لاشراف وزارة الخارجية الألمانية عدد هائل من رسائل القراء ومن المقالات لهؤلاء الوطنيين العرب الذين كانوا يعيشون في سويسرا .

وكثيرا ما كان يصعب معرفة الشخصيات الحقيقية التي كانت تحرر هذه الرسائل والمقالات ، لأنها كثيرا ما كانت تحمل أسماء مستعارة وأحيانا ما كانت توقع بأسماء غير حقيقية كابن طولون أو المغربي وعكذا .

وجاء في بعض هذه الرسائل كثير من الهجوم على الشاعر المصري على الغاياتي الذي كان قد كتب قصيدة بعنوان « وطنيتي » ونفى على أثرها من مصر حيث لجأ الى جنيف وأقام بها ، وكانت هذه الرسائل تتهمه بأنه قد أصبح وهو في سويسرا عميلا لدول التحالف انجلترا وفرنسا . وفي هذه الرسائل ما يفيد بالمتاعب الكثيرة التي كانت تخلقها السفارة البريطانية في سويسرا للوطنيين المصريين المقيمين بها بسبب عدم تجديد جوازات سفرهم ومنع وصول الأموال اليهم من ذويهم في مصر . ويجدر بهذه المناسبة الإشارة الى كتاب حديث ظهر عام ١٩٧٠ لكاتب سويسري اسمه مارك تريفتسجر Marc trfz ger يتحدث فيه عن الحركات الوطنية المصرية في مرآة الرأي العام السويسري .

واذا أردنا أن نفهم موقف الوطنيين المضربين فعلينا مراعاة ما يلي :

في نوفمبر سنة ١٩١٤ دخلت تركيا الحرب متحالفة في ذلك مع ألمانيا ، وردا على هذا الاجراء أعلن الانجليز خلع الخديوى عباس الثانى الذى كان يقوم فى هذا الوقت بزيارة للأستانة ونصبوا بدلا منه عمه حسين كامل سلطانا على مصر ، وأعلنوا بالاضافة الى ذلك فرض الحماية على مصر .

وقد أدى هذا الاجراء من جانب انجلترا الى حدوث تقارب جديد بين الحزب الوطنى وبين الخديوى عباس الثانى بعد أن كانت العلاقة بين الخديوى وبين الحزب الوطنى قد ساءت عقب موت الزعيم مصطفى كامل . أما عباس الثانى فقد ترك الأستانة واتجه شطر فينا ومن هنا سافر الى برلين للزيارة .

ورغم هذا التقارب الجديد فلم يكن هناك تفاهم تام بين الخديوى والوطنيين المصريين وخاصة من الجناح المتطرف الذى كان يتزعمه الدكتور منصور رفعت . ولكن السياسة الجديدة كانت تقضى بأن يعلن الوطنيون العرب من حيث الظاهر فقط اتفاقهم مع الخديوى ، وأن مصر ستظل جزءا من الخلافة العثمانية بعد انسحاب الانجليز منها .

وقد تركز النشاط السياسى بالطبيعة على برلين ، فأنشأت إحدى اللجان الوطنية لحزب مصر الفتاة ناديا فى برلين ، ويسررت الحكومة الألمانية بالتالى لهؤلاء الوطنيين سبيل الحصول على حجرات كبيرة وصلات فى بعض الفنادق لإقامة حفلاتهم ، كما وضع النادى العثمانى أيضا تحت تصرفهم . وفيما يلى عرض سريع لأبرز هؤلاء الأعلام :

١ - محمد فريد ، وقد خلف مصطفى كامل بعد وفاته فى قيادته للحزب الوطنى .

كان محمد فريد يقيم فى أوروبا منذ عام ١٩١٢ ، وكانت معظم اقامته فى سويسرا ، وكثيرا ما زار ألمانيا وأقام فيها لفترات طويلة ، وكان وهو فى برلين يلقي خطبه ويصدر تصريحاته المناوئة للحكومة الانجليزية .

٢ - منصور رفعت ، كان شعلة من النشاط ، وأسس فى سويسرا ناديا للوطنيين المصريين ، وكان فى بعض مواقفه السياسية أكثر تطرفا من محمد فريد . طرد فى نوفمبر ١٩١٤ من سويسرا وأُرسل الى ألمانيا . وكتب وهو فى ألمانيا مقالات عديدة ضد الانجليز ، وكان يسانده فى ذلك مكتب خاص للدعاية الألمانية . ويؤكد بعض الألمان الذين كانوا يعملون مع منصور رفعت أنه كان رجلا صعب المراس ، لم يقتصر شجاره مع زملائه

الألمان بل كان في صراع وشجار دائم مع رفاقه الوطنيين المصريين .
وأحيانا ما كان يدعى بأنه يحمل الجنسية الأمريكية .

٣ - محمد فهمي : كان لا يقل نشاطا وشهرة عن زملائه ابتداء من عام ١٩٠٠ وأسس هناك اللجنة الدائمة للشباب المصري في أوروبا . وفي يناير ١٩١٥ فاوض في برلين مع ممثلين من الحكومة الألمانية لتحديد موقفهم وموقف تركيا تجاه استقلال مصر ، الا أن الرد الألماني لم يكن كافيا لتحقيق أهدافه وقد أدى ذلك الى فتور علاقته بالساسة الألمان .

٤ - عبد الملك حمزة . كان يختلف في موقفه كثيرا عن محمد فهمي حيث قرر العمل مع مكاتب الدعاية الألمانية ، ومثله في ذلك الشيخ عبد العزيز جاويش التالى ذكره بعد هذا . أصدر عبد الملك حمزة مجلة « العالم الاسلامي » Die Islamisch Welt باللغة الالمانية ، وقد هيا له مركز رئيس تحرير هذه المجلة الفرصة للاتصال بكبار الساسة الألمان ، ومن ذلك أنه استطاع أن يعرض وجهة نظر الحزب الوطني آنذاك في أن يكون الاشراف على قناة السويس اشرافا دوليا ، على جمعية من السياسيين الألمان والأساتذة وغيرهم من الشخصيات البارزة في المجتمع كان يطلق عليها اسم « جمعية الخميس » .

٥ - الشيخ عبد العزيز جاويش : حاز على شهرة أوسع من عبد الملك حمزة ، وعرف جدا في ألمانيا . كان وهو في مصر محررا لمجلة اللواء .

غادر مصر عام ١٩١٢ واتجه الى اسطنبول وهناك التحق بجمعية « الاتحاد والترقي » ، وقيل انه كان وهو في مصر على علاقة بالوكالة الألمانية . ثم غادر تركيا عام ١٩١٦ متجها الى ألمانيا ، فقدم للصحافة الألمانية على أنه مدير جامعة المدينة المنورة التي أسسها الأتراك عام ١٩١٤ . وفي الحقيقة ان الشيخ جاويش لم يسافر الى المدينة المنورة الا لوضع حجر أساس هذه الجامعة مع شكيب أرسلان ، وعلاوة على ذلك قدم أيضا على أنه عميد لكلية صلاح الدين في القدس . والدافع الحقيقي الذي يكمن وراء رحلته الى ألمانيا لم يكن كما أعلن هو الاطلاع على نظام الجامعات الألمانية وانما كان للاعداد لاصدار مجلة العالم الاسلامي باللغة الألمانية ولإلقاء محاضرات في ألمانيا ولتقديم النصائح الى الخبراء الألمان فيما يختص بالدعاية التي تهتم مصالح العالم الاسلامي .

وقد ظهرت مجلة العالم الاسلامي باللغة العربية في اسطنبول ابتداء من ٦ مايو سنة ١٩١٦ ، وظهر العدد الأول منها في برلين باللغة الألمانية

فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩١٦ ، وكانت هذه المجلة تضم عددا كبيرا من المقالات للشيخ جاويش ولكبار المسلمين من العرب والأتراك والاييرانيين والهنود وغيرهم ، كما كانت تضم أيضا مقالات للعلماء الألمان والصحفيين والسياسيين وهكذا . ولم يكتف الشيخ جاويش بالكتابة فى هذه المجلة بل كان يكتب أيضا فى جرائد ومجلات ألمانية أخرى . وقد ظهر له على سبيل المثال مقال عن اللغة العربية وتاريخها عام ١٩١٦ فى « المجلة البروسية » (Preussische Jahrbuecher) التى كانت تصدره مرة واحدة كل عام وهى مجلة تاريخية ثقافية هامة جدا .

وبجانب الوطنيين المصريين نجد أيضا فى ألمانيا مكافحين آخرين كانوا يعملون من أجل تحرير المغرب العربى . ويعد الشيخ عبد العزيز جاويش أيضا ضمن هؤلاء المكافحين رغم أنه ولد فى الاسكندرية حيث كان لأبوين تونسيين . وقد استطاع هؤلاء الوطنيون أن يحصلوا على وعود من الدبلوماسيين الألمان والنمساويين أثناء محادثاتهم معهم تقضى بالعمل لإنشاء جمهورية مستقلة فى شمال افريقيا . ومن أشهر الوطنيين المغاربة الذين كانوا فى ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى والذين ما زالت شهرته باقية حتى الآن هو الشيخ محمد الخضر حسين التونسى الذى رحل الى مصر بعد الحسب العالمية الأولى وعاش بها ، وقد عين فى عام ١٩٥٢ شيخا للأزهر :

كان الشيخ الخضر حسين يعبش فى دمشق منذ عام ١٩١٢ ثم رحل منها الى اسطنبول ، ومن هناك رحل الى ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى ليكتب مقالات فى الصحف للتأثير بها على الأسرى المسلمين الذين وقعوا فى قبضة الألمان والذين كانوا قبل ذلك يعملون فى الجيوش الانجليزية والفرنسية والروسية . ولكن الشيخ الخضر حسين لم يحظ لدى الرأى العام الألمانى بتلك الشهرة التى كان يتمتع بها الشيخ صالح الشريف التونسى .

كان الشيخ صالح الشريف التونسى يعمل أستاذًا فى جامعة الزيتونة، ثم انتقل قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى الى اسطنبول حيث عاش بها ، وقيل أنه كان يقوم بتدريس اللغة العربية لأنور باشا وزير الحسب ، ثم توجه الى ألمانيا فى نوفمبر أو ديسمبر سنة ١٩١٤ .

أما عن نشاطه فى ألمانيا فيحدثنا عن ذلك الدبلوماسى الألمانى البارون شابنجر Schabinger فى مذكراته التى لم تطبع حتى الآن . كان شابنجر يجيد اللغة العربية ، وعمل مترجما فى القنصلية الألمانية فى

طنجة لبضع سنوات ، وترجم أثناء الحرب العالمية الأولى الى اللغة الألمانية كتيباً للشيخ صالح الشريف عن الجهاد فى الاسلام وظهر هذا الكتاب فى برلين عام ١٩١٥ .

وافق شابنجر الشيخ صالح الشريف الى الجبهة الغربية حيث وجه الشيخ صالح عن طريق مكبر الصوت نداء الى الجنود والضباط المسلمين وحثهم فيه على الهروب واللجوء الى الألمان . وفى برلينلقى الشيخ صالح الشريف مرة محاضرة أمام جمهور منتخب من الألمان ، ومرة أخرى أمام دبلوماسيين أجانب . ويبدو أن المحادثات التى أجراها الشيخ صالح مع الصحفيين والساسة الألمان عن أهداف ألمانيا تجاه المغرب العربى لم تجد القبول الذى كان يبغيه فأحس بشئ من خيبة الأمل ، كما لم يحقق اللقاء مع القيصر الألماني أى نجاح لأن السفير التركى كان حاضرا أثناء هذا اللقاء وقد عمد القيصر على التحدث باللغة الألمانية مع السفير التركى ولم يعر الآخرين اهتماما وكان من بينهم الشيخ صالح الشريف والأمير على ابن المجاهد الكبير عبد القادر الجزائري .

كان الشيخ صالح الشريف قد جاء الى ألمانيا وكله أمل أن تحقق مساعيه بالنجاح . وصرح أمام المستشرق الألماني مارتين هارتمان (Martin Hartmann) بضرورة العمل على انشاء جامعة اسلامية فى ألمانيا يقوم بالتدريس فيها أساتذة مسلمون ولكن شيئا من ذلك لم يتحقق . ومع ذلك فقد كان سعيدا راضيا بحضوره لافتتاح مسجد أقيم للأسرى المسلمين الذين جمعوا فى مكان أطلق عليه معسكر الهلال وسوف يأتي الحديث عن هذا المعسكر .

أما عن شعوره بخيبة الأمل فى جهوده التى بذلها مع الألمان تجاه استقلال المغرب فقد ظل كما هو لم يتغير . وفى أوائل عام ١٩١٧ أرسل رسالة الى القيصر يطلب منه فيها أن يقوم بتصفية كل مستعمراته الألمانية حتى يستطيع أن يقدم الى العالم الدليل على حسن نواياه ، ويبدو أن القيصر لم يرد على هذه الرسالة .

وكما نرى فقد تبين للشيخ صالح وكذلك لزملائه الوطنيين الذين كانوا ينشدون مساندة ألمانيا آنذاك تبين لهم أن التعاون مع ألمانيا له حدود لا يمكن تخطيها . وقد اتضحت هذه الحقيقة أيضا للعالم المغربى محمد العتابى فلم يستطع أثناء مناقشاته مع الألمان أن يخفى تخوفه من ألمانيا قد تحل محل فرنسا فى احتلال المغرب .

ومما يلفت النظر أنه كتب مقالا عن القضية المغربية تجنب فيه أي اشادة أو مدح لألمانيا ولسياستها ، وقد نشر هذا المقال في يناير سنة ١٩١٨ ، بل وزيادة على ذلك فقد ناشد العتابي في هذا المقال الشعوب الأوروبية جميعها على العمل على مساندة المغرب في نضالها من أجل الحرية والاستقلال .

وهناك من المغاربة من كانوا أقل شهرة ولكنهم على عكس العتابي قدموا قدرا اكبر من التعاون مع الالمان ، وأبرز هذه الشخصيات رجل جزائري الجنسية كان يعمل في الجيش الفرنسي برتبة ملازم ثان ، ثم فر منه هاربا الى صفوف الجيش الألماني ووضع نفسه تحت خدمة الدعاية الألمانية . جاء هذا الجزائري الى ألمانيا يحمل اسم الحاج عبد الله وكان قد أصدر وهو في سويسرا كتيباً باللغة الفرنسية بعنوان « الاسلام في الجيش الفرنسي » L'Islam dans l'Armée Française وقد ظهر هذا الكتيب عام ١٩١٧ يحمل اسما للمؤلف هو « رياح بوكسبويا » . وممن قام بزيارة ألمانيا أيضا الأمير علي ابن المجاهد الكبير عبد القادر الجزائري ولكن نشاطه في ألمانيا لا يعد شيئا يذكر اذ قورن بالمجهود الصحفي الذي قام به الحاج عبد الله أي ان هذه الزيارة لا أهمية لها ولا تخرج عن كونها شيئا رمزيا .

وكانت ألمانيا تعمد دائما على اطلاق الضيوف العرب أمثال الأمير علي بن عبد القادر الجزائري وغيره على معسكر الهلال للأسرى المسلمين الذي انشئ في « وندسورف » Wunsdorf على مقربة من برلين . وقد جلب الى هذا المعسكر الأسرى المسلمون الذين كانوا يعملون في صفوف الأعداء والذين كانوا قد وزعوا في بادئ الأمر على معسكرات مختلفة في شتى أنحاء ألمانيا مع غيرهم من الأسرى الانجليز والفرنسيين والروس ، ثم نقلوا الى المعسكر السالف الذكر والذي أطلق عليه معسكر الهلال . وكان يوجد في هذا المعسكر مسلمون من العرب والتتار ومسلمو بعض الدول الأخرى .

وكان يقوم بالرقابة في هذه المعسكرات بعض الضباط الالمان الذين يعرفون اللغات الشرقية ومنهم من كان يتفاهم مع الأسرى العرب باللغة العربية .

وكان الهدف من وراء جمع المسلمين في معسكر واحد بهذا الشكل هو تيسير مهمة نشر الدعاية بينهم لقبول الأهداف الألمانية التركية .

وفي سبيل ذلك أنشئت مجلة أطلق عليها « الجهاد » وقد ظهرت هذه المجلة لأول مرة في برلين في شهر مارس ١٩١٥ وطلع من هذه المجلة ١٥ ألف نسخة ، وقد صدرت بلغات شرقية مختلفة ومنها اللغة العربية ، ولم يكن المقصود باصدار هذه المجلة توزيعها على الجبهة أو في الدول الأجنبية بل كان توزيعها قاصرا على الأسرى المسلمين فقط .

وممن كتب في هذه المجلة الحاج عبد الله الجزائري والشيخ محمد الحضر حسين . وكانت ألمانيا تنتهز أيضا فرصة حلول الأعياد الدينية لاقامة احتفالات تلقى فيها الخطب للتأثير بها على الجنود ، ومن بين الذى ألقوا كلمات في هذه الاحتفالات محمد فريد المصرى وضباط وسياسيون أتراك وآخرون . وكانت هذه الخطب تهدف الى التأثير على الأسرى المسلمون للقتال في جانب تركيا .

وقبل اشتراك تركيا في الحرب (أى قبل نوفمبر سنة ١٩١٤) جلب شابنجر بعض الأسرى من معسكر بالقرب من يادربورن Paderborn وذهب بهم الى اسطنبول لكي يدعوا الناس هناك الى الجهاد . وهؤلاء الأسرى كانوا عبارة عن خمسة من المراكشيين واثنين من الجزائريين وسبعة من التونسيين . وقد أرسل هؤلاء الأسرى تحت ستار أنهم سيرك متحرك وذلك للتغطية على جواسيس العدو .

وفي شتاء عامى ١٩١٧ و ١٩١٨ وضعت تركيا خطة تقضى بأن يجمع أسرى المغرب العربى الذين كانوا فى المعسكرات الألمانية والتركية والذين كانوا على استعداد للاشتراك فى الحرب بجانب الأتراك ثم يرسلوا فى غواصات الى ليبيا بقيادة المجاهد التونسى على باش حانبة للاشتراك هناك فى الحرب الدائرة ضد الاحتلال الايطالى الا أن هذه الخطة قد باءت بالفشل بسبب التدهور السريع لحالة تركيا العسكرية وبسبب مرض على باش حانبة الذى مات على أثره قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى . وبهذه المناسبة أود أن أذكر أن هناك غواصات كانت قد أرسلت الى سواحل ليبيا لمساندة الحركة السنوسية وأخرى الى سواحل المغرب الأقصى لمساندة الحركة التحررية بها ، وهذا موضوع يحتاج الى محاضرة مستقلة لمعالجه .

أما عن استعداد الأسرى المسلمين للاشتراك فى الحرب بجانب الأتراك فلم يلقى قبولا ملحوظا ولم يظهر كثير منهم استعدادهم للاشتراك فى القتال بدليل أن بعضهم قد هرب الى الجيش الانجليزى عند ما أتيحت لهم الفرصة وهم فى العراق . ويمكننا القول أن مهمة معسكر الهلال كان دعاية للسياسة الألمانية التركية أكثر منه عملا عسكريا .

فى صيف عام ١٩١٧ أقيم فى استوكهولم بالسويد المؤتمر الاشتراكى الدولى ، كما أقيم هناك فى شهرى أكتوبر ونوفمبر من نفس العام مؤتمر الشعوب الاسلاميه ، وقد اشترك فى هذين المؤتمرين بعض الوطنيين العرب الذين كانوا يقيمون فى ألمانيا . أما ما يتعلق بالمؤتمر الاشتراكى فمن الواضح أن غالبية الوطنيين العرب الذين زاروه لم يكونوا اشتراكيين وهذا ما أعرب عنه محمد فريد المصرى رسميا للصحافة السويسرية بعد رجوعه من استوكهولم باسمه وباسم الحزب الوطنى . ومن المؤكد ان محمد فريد وغيره من أعضاء الوفود العربية قد انتهزوا فرصة عقد المؤتمر لعرض القضية العربية على أعضاء المؤتمر الاشتراكى العالمى .

أما عن مؤتمر الشعوب الاسلاميه فقد ساهمت فيه مصر بنصيب كبير ، وكان يمثل المغرب فى المؤتمر الشيخ اسماعيل الصفائحى القاضى الحنفى السابق بتونس ، ومعه الشيخ صالح الشريف سالف الذكر ، وكان يمثل ليبيا يوسف شتوان النائب السابق لطرابلس الغرب فى مجلس الأمة العثمانى ومعه الشيخ محمد بن صالح الشريف البنغازى وكان يمثل المغرب الأقصى الشيخ محمد العتابى المشار اليه سابقا .

وبعض الوطنيين العرب الذين ورد ذكرهم فى هذه المحاضرة قد عاصروا نهاية الحرب وهم فى ألمانيا ، وفى ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٨ اجتمع فى برلين ممثلون عن الحزب الوطنى المصرى وأصدروا قرارات كثيرة يؤكدون فيها انهم سوف يواصلون النضال من أجل تحرير بلادهم وجاء فى هذه القرارات الاعراب عن شكرهم للصحافة الألمانية لمساندتهم للقضية المصرية .

أما فيما يتعلق بالتطورات الأخرى التى حدثت فى مصر فمن الواضح أنه قد برزت شخصيات أخرى على رأس الثورة التى اندلعت بعد ذلك بسام قادت الحزب الوطنى ، ولم يكن لمحمد فريد فى هذه التطورات الأخيرة أى تأثير لأنه كان بعيدا عن مصر ووافته منيته وهو فى برلين فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ .

وبعض هؤلاء الوطنيين الذين كانوا فى ألمانيا أثناء الحرب من رحلوا منها الى تركيا وعاصروا نهاية الحرب هناك وعند ما رأوا أساطيل الحلفاء تمر فى مضيق البوسفور هربوا منها الى ألمانيا وفيهم الشيخ جاويش وصالح الشريف التونسى والشيخ محمد الخضر حسين ، وذلك عن طريق روسيا فألمانيا ومنها الى سويسرا ، وانضم اليهم فى الطريق الأمير شكيب

أرسلان • ورغم إقامة شكيب أرسلان في سويسرا بعد ذلك فقد ظل على ملاقة وطيدة مع ألمانيا ، ويعتبر شكيب أرسلان من أوائل الذين اهتموا بالأدب الألماني وبشعر جوته (Goethe)

وقد جعلت هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى هؤلاء الوطنيين العرب الذين كانوا يتعاونون مع ألمانيا وينشدون مساعدتها في حل قضاياهم قد جعلتهم أمام التاريخ يوصمون أيضا بالهزيمة ، ولعل في ذلك بعض الصحة ، ولكن مما لا شك فيه أن الأيام قد أثبتت صحة تنبؤات شكيب أرسلان ومحمد فريد وغيرهما وما كانوا يصرحون به من أهداف الحلفاء وخططتهم والتي وضحت بعد نهاية الحرب •

ولقد تعرض هؤلاء الوطنيون للهجوم حتى من أتباع حركة التحرير العربية في الحجاز الذين كانوا يصفون هؤلاء الوطنيين بأنهم حلفاء للأتراك اللادينيين الذين يحتقرون العرب والإسلام والذين كان لا ينتظر منهم إطلاقا أن يمنحوا مصر حريتها لو أنهم كانوا قد انتصروا في الحرب ، مع أن أنصار حركة التحرير العربية في الحجاز قد تحققوا فيما بعد من عدم تمسك الحلفاء بوعودهم التي أخذوها على أنفسهم أثناء الحرب • وربما كانوا عني حق في اتهامهم هذا إلا أنهم يغفلون تماما الظروف الصعبة والحالة القاسية التي كان يمر بها هؤلاء الوطنيون أثناء الحرب وهم في أوروبا •

صحيح أنهم أخطأوا أحيانا في بعض تصوراتهم وصحيح أنهم - كأي سياسيين آخرين - قد لجأوا إلى الحلول الوسط في بعض المشاكل • إلا أن المصادر الألمانية تؤكد - وهذا من وجهة نظرنا - أن الوطنيين العرب لم يكونوا عملاء لا للألمان ولا للأتراك • وهناك أدلة تؤكد على أن محمد فريد كان يعارض صراحة في محادثاته مع الدبلوماسيين الألمان أي سيطرة لتركيا على حكم مصر في حال انتصارها في الحرب • صحيح أن محمد فريد كان لأسباب سياسية يصرح بموافقته على تبعية مصر لتركيا بعد الحرب ولكنه كان في محادثاته الخاصة ومعظم محادثاته العامة يؤكد على ضرورة استقلال مصر •

وكلمة أخيرة نود أن نوجهها للسادة القراء قبل انتهاء هذا المقال فانا نرجو من كل من يود الكتابة عن هذا الموضوع أن يكون عادلا منصفًا في حكمه وألا يكون متسرعا في الحكم على هؤلاء الوطنيين ، لأن تاريخهم ما زال به كثير من المستندات ولم ينشر كله •

وقد أردنا بهذا المقال لفت النظر إلى ضرورة البحث والتقصي عن الحقيقة قبل إصدار أي حكم ، حتى لا يغمطهم التاريخ حقهم •